المؤتمر السنوي الثاني
لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي
التكون المهني الذاتي:
ممارسة تأملية وتأمل مُفَعَّل - تحليل الممارسات وتكوين الوعي

إن الرؤية الأعمق، وما تحققه من إزاحة، تظهر العلاقة الجدلية بين "التكون المهني" وبين التعليم كممارسة، فممارسة التعليم في عمقها تكوينية (تدريبية)، والتدريب في مضمونه الحقيقي تعليم، حيث كلاهما في مضمونه البنائي وصيغته الإجرائية لا يتحقق من خلال اكتساب المهارات والأساليب والمعلومات والمعارف فحسب، بل يتحقق عبر تحولات وقناعات ناتجة عن تراكمات وتغييرات صغيرة في حقول الذات المتعددة؛ الاجتماعي، والثقافي، والعاطفي، واللغوي.

وبالتالي، فإن قصة النمو المهني للمعلمين لن تبدأ في نسج حوادثها إلا عبر صيغة من العمل والبحث تتداخل فيها ممارسة التعليم مع البحث التأملي، تلك العلاقة بين الممارسة والتأمل هي من يعمل على حياكة بؤرة القصة، ويحبك حبكتها؛ تلك الحبكة التي تؤسس لتحويل التعليم من حرفة إلى مهنة وهوية.

فكل إبداع معرفي يبدأ من خطوة جديدة في الممارسة؛ خطوة خارج الحقل، حقل المعروف والمثبت، ذلك الحقل الذي نمارس فيه "فعلنا وإدراكنا وإحساسنا" حسب بنيتنا من جهة، وقوانين الحقل من جهة أخرى، حقل مرسوم بحدود التعود واللاشعور المعرفي والعملي،

أعراف المجتمع وقوانينه، أنماط الإدراك والتفكير وأشكال المعرفة، خطوط السلطة وإكراهاتها. تلك الخطوة التي تشكل إزاحة في الممارسة واختراقاً في المعرفة والشعور، وتفتح فضاء لبحث في تنمية هوية المعلم كمهنة وشخص ودور ومشروع.

إن سؤال التمهين "التكوين المهني" للمعلمين هو سؤال إشكالي يمكن التعبير عنه بأشكال مختلفة، وتفرعات متعددة، نحتاج إلى جرأة لتكثيفها في صيغة: أن نكون مهنيين يعني أن نصير منتجين مهنياً، أن ننتقل من وضعية التنفيذ التقني "الإجرائي" إلى وضعية الإنتاج، فكيف العبور؟

إن سؤال العبور يحيلنا على جملة من الأسئلة، أسئلة عن معرفة المعلمين وممارساتهم ومصادر استقائها وطرق اختبارها وصيغ تنفيذها، فكل ممارسة تتجلى في شكل فعل هو نتاج لحالة مركبة من الإدراك والفكر والمعرفة والسلوك والعاطفة في سياق تاريخي مكاني وعلى صلة بآخرين.

وانطلاقاً من هذا الهم لخصوصية "التعليم كمهنة وهوية"، فإننا نرى أن التطوير يبدأ من تغيير نوعي وبنيوي على برامج العمل مع المعلمين بشكلها العام وعلى علاقتها بالممارسة اليومية الصفية للمعلمين، بشكل يجعلها:

- تعتمد التشارك الموقعي الذي يشمل كل مكونات المدرسة وعلاقاتها.
- إدخال الفعل الذاتي إلى داخل الممارسة الصفية التي بدورها تصبح فضاء للنمو المهني والتغيير الاجتماعي ووسيطه في آن.
- الانطلاق من ممارسة المعلمين لتوثيقها والتأمل فيها.
- معالجة الممارسة بالقراءة والتفكير والتأمل والسؤال والتحليل والنقد.
- اعتماد الكتابة الذاتية والحوار الموثق مع الزملاء كمواد للتطوير.
- بناء التكون أثناء الممارسة وعليها، وليس تدريباً قبلها وبعدها.
- بناء التعليم على شكل كفايات ومنظومات "تمثل بنى دينامية مبنية من أجل أن يكون النشاط محورها وقابلة للتعديل لتلائم مختلف الشروط".
- التعليم كممارسة منزاحة والتكون المهني كتغيير في الوعي؛ تغيرات تترجم دوماً لإعادة تأويل الذات لذاتها وموقعها وعلاقاتها بالنسبة للوسط وللآخرين.

إن فعل التغيير لا يتحقق خارج التعبير عنه كنص، فنص التغيير يكتب التغيير ويجسده في الذات والواقع، يخلق له أسسه ومرتكزاته، يوفر قناعاته وأدواته، يحوله إلى مشروع يكتب في الذات وفي لغتها وينكتب في ممارستها التي بدورها توفر للنص أرض تحققه، فالنصوص لا تكتب في الهواء على الرغم من نقائه وشفافيته، لا بد من أرض ثقيلة نجترح المعنى على سطحها ونبنيه.

إنّ المهنية تبنى كهوية عبر" الممارسة التأملية والفكر المُفَعَّل"، تلك العملية الجدلية التي يتم تفعيلها عبر موضعة الممارسة في ساحة الفكر التأملي النقدي. لتحقيق ذلك، لا بد من توفر وسائط تجلب الممارسة لحقل الوعي وتيسر ميلاد الفكر والمعرفة، ومن هذه الوسائط:

1. الأنا منكتباً: لتوفير مادة من الكتابة الذاتية، كتابة يوميات، مذكرات، ملاحظات، رسائل لآخرين، ردود، مقابلات، كتابة حرة "التداعي الحر"، مادة توفر موضوعاً للتأمل، ورصيداً للممارسة التالية، وفضاء للحوار مع آخرين.
2. الآخر شريكاً ومحاوراً: عقد شراكة مع آخرين، في توثيق الخبرة والممارسة وتبادلها، وتحليلها، ومعرفتها عبر محادثات للتوضيح ولبناء فهم مشترك وتسمية الأشياء بالكلمات والمفاهيم.
3. التمهين مشروعاً: أن يرتبط مشروع التمهين بمشروع شخصي ومجتمعي، بحيث يصبح رغبة وقناعة، عبر دمج المهنة في هوية الشخص ودوره المجتمعي.
4. البناء تكاملياً: ربط المهني ليس بالمعرفي منفرداً، بل بالوجداني والاجتماعي، فالمعرفي وحده يزيل شاعرية الإنسان، واستعادة لغة عاطفية كادت اللغة الرسمية أن تنسينا إياها.
5. الفعل نصاً والنص ممارسة: إن كتابة التجربة من جهة، والمرور في تجربة الكتابة كعملية بحث وتأمل تنتج المعلمين المتدربين الذين ينتجون النصوص التي تنتجهم، ويمارسون فعلاً يكتبهم بمقدار ما يكتبونه، في صيغة يتنافذ فيها النص والفعل، فيدخل مسيرة الفاعلين في صيرورة التاريخ بزحزحة النماذج التي استقرت.
6. الممارسة تأملية والفكر مُفَعَّلاً: بناء ممارسة نامية تنتظم في سياق معرفي، وتولد بدورها خطوات وجوانب غير مسبوقة وغير محسوبة يتعين على الفكر المُفَعَّل الإحاطة بها ودمجها في النشاط وفي التأمل.

ومن هذا التصور انبثقت فعاليات المؤتمر الذي حمل عنوان: التكون المهني الذاتي: ممارسة تأملية وتأمل مُفَعَّل – تحليل الممارسات وتكوين الوعي، تحقيقا لرؤية ترى أن مهنة التعليم، كفعل علائقي، وعلاماتي، في تشابكاته الشخصية والاجتماعية من جهة، والمعرفية والعملية من جهة أخرى، يمثل فضاء للفعل التأملي والتغييري بامتياز، فالتعليم مهنة تخترق من يمارسها وتمس هويته في الصميم، ويمكنه أيضاً أن يخترقها بذاتيته ويعيد صياغتها بشكل يكون فيه تفرده جزءاً حيوياً منها. ر

ومع أن التعليم يقوم على معرفة المعلمين، معرفة تطبيقية في جوهرها، إلا أنها تحتمل بالتأكيد أن تكون مجال اختبار وتأمل، ما يجعل عمل المعلمين تطبيقياً يمكنه أن يدخل فضاء الإبداع والإنتاج المعرفي لسببين:

- كل فاعل في الحقل الاجتماعي المعرفي يمكنه أن يحيل تجربته على معنى جديد ومعرفه جديدة.
- إن كل نشاط في أثناء الممارسة الاجتماعية المعرفية، يزيح المعرفة وينزاح بشكل يدفع الفكر إلى الإحاطة بالجديد وتأطيره معرفياً.

ومن إيماننا العميق بأهمية تجربة المعلمين في العمل والحياة، ولرؤيتنا للرابط بينهما، نرى ضرورة أن توضع هذه التجربة في سياق تأملي تطويري، عبر مقاربتها سرداً وتأملاً وتفكيراً؛ للكشف عن المعنى فيها، فكراً وسلوكاً، بتحويلها من مادة خام إلى منظومة عمل وخطاطة فكر وصفحة معرفة.

وعلى ضوء هذه الرؤية تم بناء خطة المؤتمر بحيث اشتمل في بنيته على المحاور التالية:

1. مداخلات فكرية: تحليل للممارسات وتكوين الوعي.
2. تجارب تطبيقية: ممارسة تأملية وتأمل مُفعَّل.
3. شهادات: إزاحات في العمل وتغيرات في الذات.
4. ورش تطبيقية: منهجيات في الفعل والمعرفة.

مالك الريماوي – مركز القطّان